فى التعليم الأزهرى

معركة الأقلام

فى البحث حول إصلاح اللغة العربية

لا سبيل إلى القول بأن اللغة العربية فى ذاتها السليمة الحية شىء يحتاج إلى إصلاح ، وإنما ألسنتنا وأقلامنا هى التى تفتقر إلى إصلاح كبير ، يعيد إلى العربية جانباً طريف المجد تالده ، ولذا نرى أفذاذ الباحثين حول العربية يبحثون وآراؤهم تنصب على وجوب التهذيب لطرق تعليمها والأخذ من معينها ، بمقدار ما يجرى بها على الألسن والأقلام فى تيار قوى يجرف فى طريقه غريب اللهجات واللغات التى تزاحمها فى البلاد ، وهذا يقوم له البحث على قدم وساق منذ أشهر على صفحات الجرائد

ولما كانت العربية مهبط ديننا وعرى قوميتنا ونسيج شعارنا ، كان لزاماً علينا نحن القائمين بأمر التعليم الأول فى البلاد ، أن نخوض عباب البحث فى طرق تعليمها أو على الأقل نقفو أثر الباحثين علنا نتأسى بالموفقين منهم فى شىء ، أو علنا ندرأ عن أنفسنا شيئاً مما يتجنى به علينا بعض الباحثين ، فى زعمهم بأننا ومشروعنا الأزهرى للعربيـة عوامل ضعف ووهن ، الأمر الذى تنزى به نفسى ، وترانى معـه أيها القارىء الكريم ، فى حاجة إلى أن أحدثك عنه مستميحاً إياك إن أطلت . .

لقد حاك لجة ذلك البحث فى المبدأ الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين ، وما كنا بشىء من كلمه القصار ، تلك الكلم التى نقرأها دوما وهى تحمل لك ما تشاء فى ضروب الأدب والعلم من لذة ومتعة ، بصرت تلك اللجة على طول النظر ولم أكد أتفرس منها حينذاك معجزة الفن وآية التنسيق ، وأفكر ماذا عسى أن يصلح لها من الصدى ومن ذا الذى سينسج على منوالها يا ترى ؟؟ وإذا أنى كذلك وكل حائك يحضر ، ويأخذ الأهبة ويعد العدة ، وما هى إلا عشيـة أو ضحاها ، حتى استرسلت إحدى الصحف فى طلوعها بالكلمات المتواليـات ،

تشع خيوط السداه تختلف صنعة ولوناً وبهجة ، وطفق يداخلها ما كونها فى تلك اللحمة ، أطوارا فى مهارة وجمال واعتدال ، بحال تنمق وتنمم ، وطورا فى خبال واضطراب وتعقيد، فى صورة تشوه وتفسد ، وعلى هذا المنوال حيك ثوب البحث ، ثم انتشر فترامت أطرافه ، وأمسك كل باحث منه بطرف وكان الأخذ والرد ، ثم كان الجذب والشد ، فتستقر اللغة على ذلك البساط حينا ، وتضطرب حينا آخر ، إلى أن ألقى بها أو قل هى التى هانت على الأقدام فألقت بنفسها فى ميدان فسيح ، وتطورت عليها حال البحث إلى معركة كثيرة الجلبة ، أسنتها الأقلام ، وقذائفها القول يداه القوم فيها حب الأثرة والاستئثار والتكاثر والافتخار: هذا يدافع عن رأيه ليكون هو الأسير ، وذاك يغالب بقوله ليكون هو الأشهر ، فكأنى بالقوم فى تضالهم وهم أعراب خلص ، يتنازعون القسمة ويتقسطون الغنيمة ، وماتنازع قومنا ليمتزعوا قسمة أو غنيمة ، وإنما ليتما كظوا بالعربية ، فهى آية الشرف الخالد ، والمجد التالد ، كل بها يفتخر وإليها ينتصر ؛ وهكذا شاهدت المعركة فلحظت فيها وعمر الحق من بطولة الفروسية والانتصار إلى العربية ما يشرفها كثيرا ، وما يجمل التأسى به والأخذ عنه لمن شاء إلى العربية انتسابا ومنها اقترابا ، وسيما إذا ضربنا بعرض الأفق ما كان يتخللها فى بعض الأحايين من نذالة الهوج وسخف القول ؛ نعم الطراز الأول حدث ولا حرج ، ثم قف مليا ترى الأقلام البارزة تنبش كنوز الفصحى فيتجلى مكنونها ، فى أدب جم ، وعلم فياض ، وبيان صريح نزيه ، وملح وطرائف ، تعطيك دروسها الممتعة ، وترشفك كؤوسها المترعة ، وأما عن النوع الأخير وأهله فكنت ترى الأقلام فيه تتعثر وتكبو ، فتؤذى الأسماع بصريرها وتقذى الأعين بنثارها ؛ ولا تلبث عندها حتى تقفل راجعاً ، ولا شىء يدور بخلدك ، سوى المثل القديم « ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل » (١) ولذا لم أرد أن أحدثك عن هذا النوع إلا عقدار ما مستا منه .

زعم أحد الباحثين من النوع المتأخر ولا أحب أن أذكر اسمه هنا (نزولا على إرادة صحيفتنا) زعم حضرته بأن التعليم الأزهرى والقائمين به عقبة فى سبيل انتشار العربية؛ وصدقنى لو أنى أتيت إليك بنص كلامه ، لرأيته وهو يتوردنا فيه بهجو عدمنا به عدم القرص العضوض ، الأمر الذى يغضبنا طبيعياً ، ولكن لما جبلنا عليه من الوداعة والأناة، وما أحسبك إلا معى بحكم الزمالة ؛ لا غناء لنا فى أن نلقى مثل هذا المتصلف غضاباً، كما لا نحب أن نغصب الحقيقة ، فنتجنى منها على الفصحى فى جلالها ، فندعيها لا لسنتنا صبغة ،

---

(١) مثل يضرب لذى المنظر لا خير فيه

ولا قلاعنا صنعة ، لأننا طبيعياً لم نحلق بمشروعنا فى قلب الجزيرة تلك ، لنرى قحطين طورافينا أمثال العيس والبيد ، والفيافى والقفار ، والحسك والعرار ، والبطاح والتلاع ، إلى ما تجرى الطبيعة وحدها فى وصفه على ألسنتنا وألسنة الناشئين بين أيدينا ، فنكون وإياهم أعراباً كما يرضى ذلك المتصلف ، لم نوجد كذلك وإنما وجدنا بمشروعنا على ما فيه من ضروب النقص فى قطر دخلته العربية غازية فاتحة ، تقوى فى تقدمها حيناً ، ويداهمها الخور فتتأخر أحياناً ، ألا ليت شعرى أن يعلم حضرة الباحث كل ذلك وليته يأتى إلى فى عربيته ليطوف معى بين الريف وقراه ، لأريته كيف تتعدد اللغات فى مصر ، فتختلف اللهجة والرطانة ، عساه يعلم أنه لو حاول ترويج بضاعته بين هذه الألسن الكثيرة الملتوية فى المدرسة وفى الشارع والبيت لعجز وكان خساره فى رأس ماله محققاً ، عله يتذكر فيعود بقدر ويعذر ، إلا أننا لا نود تثبيط العزائم ، ولا إحباط الهمم فى محاولة نشر العربية ، فشعارنا شرق يترنم عليه الهلال العربى ، والعربية بيننا للأسف أثر لا عين ، وكل ما نرجوه فى القول ، بأن التعليم الإلزامى ينتشر بمدارسه ومعاهده فى طول البلاد وعرضها ، فيجب أن يكون هذا المشروع فى مجموعه داعياً إلى الله والوطن بلسان العربية ، وهذا ما نصبو إليه ، ولكن .. أين نحن منه الآن ؟ الحق أننا لسنا منه فى شىء يذكر ، وليس علينا فى ذلك من ذنب ، فالمسألة مسألة القائمين بأمر التعليم فى البلاد ، فها هى ذى مدارسنا ومكاتبها خاوية من كل كتاب ، وها هى ذى جيوبنا لا يتحقق فيها ما يسمح لنا بشراء كتاب أو اشتراك فى مجلة ، وها هو ذا عملنا نظامه مرتبك مضطرب ، وقته قصير ومنهاجه عسير ، ومشاغله لا تسمح لنا من فترات النوم إلا بالضرورى ، مع عيشنا على الكفاف والتكل ، يضغط على ظهورنا كل يوم بثقل جديد ، وها هو ذا النشء بين أيدينا محرم عليه كتاب لصيغة العربية السهلة ، وعليه فى الوضع مسحة الفن التعليمى والتهذيبى ، فمع هذا كله كيف نكون بمشروعنا عوامل انتشار العربية ???

ألا إننا لنهيب بوزارة المعارف أن لا تترك الحبل على الغارب كذلك ، كما إننا لنرجو هؤلاء المتجنين علينا فى غير شفقة ولا عدل ، أن يذكروا أن للناس نفوساً كالهم نفوس ، وأن الصبر فى الناس محدود ، وكظم الغيظ له حدود ، وما أخطر الغضب من الحليم .

عبد الحميد دويدار
رئيس مدرسة أبى غنيمة

اتحادنا ...

الاحساس بالألم دليل الحياة . إذ لا حياة لمن لا حس له ولا شعور : ولقد سمى النوم موتاً فى قوله تعالى « هو الذى يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » .

غير أن هذه الحساسية تختلف قوة وضعفاً ، ليناً وعنفاً ، باختلاف الآحاد والجماعات . فمن الناس « المتبلد » الذى نعته قومه بالخلو من الاحساس ! ومن الناس الجلف الأرعن لا وعى الوخز وأتته الأسباب كأن به مغناطيسية تجذب مثيرات الشعور ومهيجات الأحاسيس!.. كما أن منهم المتجلد للخطوب فى غير جزع أو بلادة ..

وكما أن الاحساس يختلف هذا الخلف كله ، كذلك المؤلم من الأمور درجات متباعدة ، فليس الفرد تسلبه قوته كالفرد تسلبه بعض قوته ، وليس الرجل تعتدى على متجره أو أرضه كالرجل تعتدى على شرفه وعرضه ! . وليست الأمة يعتدى على بعض أموالها كالأمة يعتدى على حريتها واستقلالها ..

إنما يتفاضل الآحاد ، وتتفاضل الجماعات ، والأمم بما فى كيانها الذاتى من قوة المقاومة أكثر مما تتفاضل بالصبر والتجلد — وإن كانا من الدعامات القوية فى الخلق الاجتماعى — فالتجلد إذا دام صار تبلدا .. وهو شر ما يرمى به الفرد أو الجماعة . ألم تر إلى الزيت كيف تتجمع ذراته المتناثرة فى الماء حتى تكون كتلة واحدة تعلو — باتحادها — على نفس الماء الذى فرق بينها ؟ ألم تر إليه وقد أصبح كتلة واحدة بعد ما كان ذرات متناثرة متباعدة ؟؟

ألم تر إلى الجسد الذى تعيش فيه على وجه الأرض : أليس — اتحاد — خلايا فى مظهره وجوهره ؟ وهب كل خلية منه مستقلة عن الأخرى غير متحدة معها ، أكنت تصبح ذلك الكائن الحى العامل والانسان الكامل ؟. وتلك الأعضاء التى تعاونت على جلب الطعام وطهيه ، ثم طحنه وازدراده ، ثم هضمه وتحويله إلى دم يغذى الجسد كله ! .. لو لم يوفق الله بينها بحكمته ، ولو لم يسخر كلا منها لمنفعة الجميع، ما كانت الحياة ولا عاش الأحياء ..

فالاتحاد سنة الله فى كل شيء . وعلى قدر الخيرية الكامنة فى كل اتحاد — حيوية الأيمان والتضحية — وعلى قدر تدعيم أسسه كذلك : تكون قوته ويكون أثره فى الحياة .

وعلى هذا يمكننا أن نعرف الاتحاد بأنه « ارتباط ذرات لتكوين جسم » أو « تجمع آحاد لتكوين طائفة » أو « تآلف جماعات لتكوين أمة » أو « تحالف أمم لتكوين «عصبة الأمم» »!

ولا ريب أن لوحدة الشعور ، واتفاق المصالح أثرا كبيرا فى تكوين الاتحاد .. فوحدة الشعور ، وتجانس التفكير ، وتوافق المصلحة ، وإخلاص القيادة ، إنما هى الأركان التى لا بد

منهـا لأى اتحاد .. فهى القوة العظيمة التى تجعل للهيئة عظيم الأجلال والاكبار فلا تقف العثرات فى سبيلها إلا ذللت ، ولا تعترضها العقبات إلا مهدت .. والظفر لمن صبر !

نعم الظفر لمن صبر ولم يستعجل الغاية وهو لا يزال فى البداية .. فلو كانت الآمال دانية الجنى قريبـة القطوف لكانت « سلما » تشترى لا آمالا وأمانى تتشهاها النفوس وتتمنى إدراكها الأفئدة .. وليس النصر رهين إعداد الجيوش وتجهيز الكتائب ، ورفع البنود فوق هامات الجنود .. ولكنه ثمرة الجهـاد والاستماتة فى الذياد ، والتضحيات الجسيمة ، فإذا بالليل الحلوك وقد أعقبه صبح منير !!!

وما فتل العزائم ، ولا وأد الهمم إلا استعجال الظفر ، وإلا التفكر فى العواقب .. وقد قال سيـدنا على كرم الله وجهه « من أكثر فكره فى العواقب لم يشجع » . ومالنا نستشهد بكلام البشر : ومن أصدق من الله حديثا ؟ « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين .. وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا » إلى قوله تعالى « والله مع الصابرين » .

مهما كان الفرد قويا فى ذاته ، معتزا بمزاياه وصفاته فأن « انفراده » يغرى به ويؤلب عليه . ولكن امتزاجه فى الكل يحميه ويرد عنه كيد الكائدين . ويحول بينه وبين طمع الطامعين . ولولا هـذه الفائدة الحيوية ما كانت القبائل ولا كانت الدول ، ولا رضى ذوو النفوس الأبية أن يكونوا للوطن فداء ، أو ينتقص من حريتهم الذاتية لتكمل حرية الوطن بما فيه من ملوك وسوقة ، وما ينتظمه من وزراء وخفراء .. فأنا إذ أدفع بعض مالى بحكم القانون لا أتخذ ما أنفق مغرما إلا إذا أعمتنى « الأنانية » . فالمنطق يطالبنى بالاجابة على هذا السؤال : ترى ماذا كنت تصنع (وحدك) فى الدفاع عن نفسك وعرضك ومالك لو لم تكن جزءا من هذا الكل ؟ حينئذ يبدو لى رهيبا ما أنا اليوم بمنأى عنه ومنجى منه !!

لم يشذ — إذن — البعض من طائفتنا عن الناموس الطبيعى الذى سنه البارى جل وعلا فى الكائنات ؟ فليس أقوى شعورا ولا أوثق مصلحة ولا أعظم إحساسا بالألم منا نحن المعلمين الالزاميين ، فنحن أبناء ثقافة واحدة ، ومهنة واحدة ، يعمنا غبن تساوى فيه كبيرنا وصغيرنا وقاصينا ودانينا ، وقديمنا وحديثنا : فليس عجيبا أن نتحد ، بل العجيب ألا نتحد !! . وقد برهن المعلمون فى السنوات الأخيرة أنهم يصدرون عن فكرة واحدة ويرمون عن قوس واحد تحت راية الاتحاد ، لا نهاب الاعتساف ولا نترك سبيلا يوصلنا إلى العدالة والأنصاف حتى تسلكه ، وفى كل حال نستمد من الله المعونة والتوفيق .

محمد عيسى مرسى
الوكيل الثانى للاتحاد